وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعـــــــــــة المثنى
كليـــــــــــة الآداب
قســـــــــــم الاثـــار
المرحـــــــلة الرابعة

تاريخ الشرق الأدنى القديم
(بلاد الشام)

مدرس المادة
م.م. هيثم عقيل عويز

وكانت السيادة تنتقل من مدينتى صور وصيدا ، وقد حمل أغلب ملوك صور لقب ملوك صيدا ومن المرجح أن صيدا ظلت تحتفظ بزعامة الجزء الجنوبى من فينيقيا حتى الألف الأولى قبل الميلاد . أما بيبلوس فلم تكن لها هذه الشهرة ولم تلعب دورا كبيرا فى سياسة فينيقيا وربما رجع ذلك لتبعيتها للنفوذ المصرى أحيانا أما مدينة أوجاريت فلم نعد نسمع عنها أى شئ يذكر .

المحطات والممالك والمراكز والمدن التجارية التى أسسها الفينيقيون فى الخارج :

قامت خطة الفينيقيين فى المجالين التجارى والصناعى على استغلال موارد بلادهم الطبيعية واستخدام الخامات فى الصناعات المحلية ذات القيمة التجارية وتسخير هذه المواد والخامات فى خدمة هذين المجالين فى الداخل والخارج . واهتموا بإعداد الموانى الطبيعية البحرية وبناء أسطول تجارى ضخم وإعداد البحارة ذوى الكفاءة العالية . فلم يكن الفينيقيون ملاحين يجوبون البحار على غير هدى وإنما كانوا يسلكن طرقا بحرية معينة ومدروسة طبقا لمهارة بحارتهم وقبطانهم .[1] فعندما طلب

---

(١) يصف سترابون الصيداويين بأنهم :
" فلاسفة فى علمى الفلك والحساب " ويضيف إلى ذلك قوله : " بأن المدن الفينيقية فى عصره كانت تعد أعظم موطن للمعرفة " ومن أولئك الذين اشتهروا فى حقل العلم فى النصف الأول من القرن الثانى الميلادى مارينوس الصورى مؤسس الجغرافية الرياضية التى كانت يعتمدها العالم القديم ، والذى سبق بطلميوس الجغرافى الشهير بزمن قصير . وقد كان بطلميوس فى مؤلفاته يشير إليه ويقول أنه كان يعتمد على مارينوس الصورى مصدرا لمعلوماته . وقد رسم مارينوس خرائط ذات فائدة عظيمة ، ذلك بأنه وضع خطوطا للعرض وخطوطا للطول لكل موقع جغرافى وقضى بذلك على التخمين الذى كان يلجأ المسافرون إليه عند تعيينهم المواقع الجغرافية ، راجع : د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

سليمان إلى صديقه الملك احيرام ملك صور أن يبعث إليه ببحارة فينيقيين لمساعدته في بناء أسطوله البحرى طلب منه أن يرسل إليه " بالنواتى العارفين بالبحر "[١] مما يدل خبرتهم وكفاءتهم . كما يرجع الفضل إلى البحارة الفينيقيين فى اكتشافهم لنجمة القطب الشمالى التى أسموها الإغريق بأسمائهم " فوينيكى " فهم الذين أدركوا أهميتها فى تحديد الجهات الأصلية فبواسطة هذه النجمة وبواسطة نجوم أخرى استطاعوا أن يحددوا الطرق البحرية والمسالك التى يجب عليهم أن يسلكوها بمراكبهم . وبذلك كانوا أول من أتقن فن الملاحة ليلا والسير حسب النجوم .[٢] ونجد أنهم اهتموا أيضا بالتجارة البرية وتأمين طرقها .

وعندما انطلقوا فى مجال التجارة الخارجية اتبعوا أيضا خطة مدروسة فعملوا على إنشاء الموانى البحرية الاصطناعية والمحطات البحرية فى الشواطئ المطلة على البحار . وعملوا أيضا على إنشاء مراكز تجارية ومدن جديدة أصبحت عواصم لها شأنها فى مجال التجارة فى البلدان الغنية بمواردها الطبيعية والاقتصادية ، للاستفادة من هذه الموارد فى إقامة صناعات يقومون هم باستغلالها وتصديرها واحتكار تجارتها مما يساعدهم على الرخاء الاقتصادى . وعملوا كذلك على فتح أسواق جديدة فى مختلف البلاد المطلة على البحر المتوسط يبيعون فيها بضائعهم وبضائع جيرانهم وبضائع بلاد بعيدة عنهم . وكان من ضمن سياستهم كذلك توثيق العلاقات التجارية مع بلدان بعيدة عنهم والدخول فى منافسة تجارية حرة . فإذا ما نزلوا فى مكان ما عملوا على الحصول على حق الاتجار والتبادل التجارى . وكان هؤلاء التجار كلما اتسعت نطاق أسواقهم التجارية ازدادت موارد الإنتاج عندهم حتى أصبحوا على ممر الأيام حلقة وصل بين الشرق والغرب ينقلون إلى الغرب

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(٢) د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ١٠٥ ؛ د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٣٢٩ .

منتجات الشرق ويرجعون إلى الشرق محملين ببعض منتجات الغرب .

وبمرور الوقت أيضا أصبحت بعض مراكزهم التجارية الجديدة أو مدنهم الجديدة التى أنشأوها بمثابة مراكز ثقافية تنقل إليها مظاهر الحضارة الفينيقية وبعض مظاهر حضارة الشرق الأدنى القديم . وعندما كانوا يحلون بمكان ما ، كانوا يبعثون النشاط والرواج الاقتصادى فيه[1] وكانت جماعة التجار الفينيقيين من أهل صور يأتون إلى هذه الأماكن ويستقرون فيها ، وجماعة تلو الأخرى حتى تشكل مع الأيام جالية كبيرة . وكان الفينيقيون ، أنى توجهوا ، يبنون وينشئون ، وبصفتهم جالية غير عدوانية ، فإنهم لم يثيروا الشك فى نفوس الشعوب التى كانوا يتسربون إليها كتجار . ولم تكن تربط هؤلاء التجار الفينيقيين عقيدة سياسية واحدة أو عقيدة دينية واحدة بل كانت تجمعهم صفة واحدة وهى حب التجارة ، وقد ساعدهم ذلك كثيرا فى تكييف حياتهم فى أية بيئة اجتماعية جديدة . فلم يكونوا مستعمرين بل أهل تجارة مسالمين .

كان الفينيقيون فى مجالى التجارة والصناعة وسطاء ، أى أنهم كانوا يقتبسون ويتعلمون ويتبنون ما حققه غيرهم . فبفضل مهارتهم وأساطيلهم كانوا يعنون بنقل البضائع والسلع للمقايضة فى بلدان حوض البحر المتوسط .

وكما أنهم كانوا وسطاء فى عالم التجارة والصناعة فإنهم كانوا أيضا وسطاء فى مجال الفكر والعلم والديانة والفن . فكانت مراكبهم وقوافلهم البرية التى كانت تنقل البضائع والسلع المختلفة كانت تنقل معها أيضا أمورا غير عادية ، أمورا غير ملموسة ، ولكنها كانت فى جوهرها أهم بكثير من البضائع المادية وتأثيرها أعمق من التأثير المادى للبضائع والسلع وكانت هامة لرقى الإنسان وتقدمه . وهذه الأمور غير المادية التى كان الفينيقيون ينقلونها أينما توجهوا سواء أكانت مظاهر حضارات الشرق القديم أو مظاهر حضارتهم ، فلم يقتصروا على نشر الحضارة التى نشأت على الساحل الفينيقى جنوبه وشماله بل أنهم جعلوا من البحر الأبيض المتوسط مركز إشعاع حضارى تنبعث منه تيارات فكرية وثقافية من بلاد النهرين وبلاد الشام

---

(١) د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١٣٨ .

وجنوب الجزيرة العربية ومصر . وتعلم منهم الإغريق الكثير فـــى مجـــال التجـــارة والحضارة .[١]

فكما كانت العلاقات بين فينيقيا ومصر تجارية وحضارية وتتميز بكثير مـــن المودة والإخاء والتبادل من الطرفين ، كانت كذلك بين فينيقيا ومعظم بلـــدان الشـــرق القديم .

ولما تأثرت التجارة الفينيقية نتيجة للمنافسة اليونانية ، وفقدت المدن الفينيقيـــة استقلالها السياسى نتيجة للغزو الآشورى ، أخذ أثر الحضارة الفينيقية بـــالتقلص فـــى حوض البحر المتوسط كافة . وبعد ذلك نجد أن التجارة البحرية الدولية التـــى كـــانت تلعب فينيقيا فيها الدور الرئيسى انتقلت إلى أيـــدى الإغريـــق وقرطاجـــة ، وانتقلـــت تجارتهم البرية كذلك إلى أيدى التجار الآراميين .[٢]

ويرجع نزولهم فى جزر أواسط البحر المتوسط إلى منتصف القرن الحـــادى عشر قبل الميلاد ، إن لم تكن قبل ذلك . وبلغ هذا النشاط التأسيســـى التجـــارى فـــى غربى البحر المتوسط ذروته كما يبدو بين منتصف القرنين العاشـــر والثـــامن قبـــل الميلاد .

وكانت مراكبهم التجارية تخرج من موانئ جبيل وصور وصيدا إلى الموانى المصرية وسواحل شمال أفريقيا ، أو إلى قبرص ، ومن هناك كـــانت تتجـــه غـــرب متنمية بجبال طوروس إلى ليقيا فإلى جنوبى جزيرة رودس ومن ثـــم إلـــى جزيـــرة كريت وكورسيرا فصقلية . ومن صقلية كانوا يتابعون اســـفارهم مـــارين بجزيـــرة كوسيرا (واسمها اليوم بنتلاريا وعرفها جغرافيو العرب بجزيـــرة قوصـــرة) إلـــى مراكزهم التجارية الجديدة التى أنشأوها فى شمال أفريقيا غربا فى محـــاذاة الشـــاطئ إلى مركزهم ومدنهم الجديدة أسبانيا . وإلى جانب هذا الطريق كان هناك طرق بحرية

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٤٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٣ .

أخرى من الجنوب إلى الشمال مباشرة .[١]

وهكذا أنشأوا لهم طرقا بحرية تجارية عبر البحر المتوسط من شرقه إلى غربه وظلت هذه الطرق البحرية مدة طويلة ملكا لهم يحتكرون تجارتها لا ينازعهم فيها منازع . وإلى جانب موانيهم التى استخدموها على الساحل الفينيقى نجد أنهم استخدموا أيضا ميناء عزيون جابر التى سميت فيما بعد ايلات وهى آيلة الرومانية والعربية وموقعها على رأس خليج العقبة . كما كانت لهم محطات بحرية على الخليج العربى ، فقد كان هناك على شاطئ الخليج مدن أسماؤها هى أسماء مدنهم فى صور وارواد فى فينيقيا .[٢]

وتعتبر صيدا (اسمها يدل على معنى الصيد) أقدم عهدا من جارتها صور وأمنها . وكان لصيدا ميناءان : داخلى وخارجى ، فهى تختلف من هذه الناحية عن صور (معنى اسمها صخر) وارواد[٣] وقد وصف ميناء صيدا قديما وعرفنا من هذا الوصف أنه كان لهذا الميناء أرصفة وحواجز وأحواض لبناء السفن وإصلاحها .

وكان لصور أيضا ميناءان مستقلان الأول مدخله إلى الجهة الشمالية وكانوا يسمونه الميناء الصيداوى ، ومدخل ثانى فى الجهة الجنوبية ، وكان يعرف بالميناء المصرى . وكان يوجد بجبيل حوض لبناء المراكب وذلك لقربها من موارد خشب الأرز . ومن موانيهم هذه انطلقوا لكى يؤسسوا المراكز والمدن والمحطات التجارية فى قبرص وجزر اليونان وايطاليا وفى شبه جزيرة ايبيرية (اسبانيا والبرتغال) وجزر البحر المتوسط وشمال أفريقيا ومنطقة الخليج العربى . ونجد أنهم بدأوا بقبرص نظرا لقربها من الوطن الأم . وكانت أكبر المراكز التجارية فيها هى مدينة كيتيوم .[٤]

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١١٦ - ١١٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(٣) عن دور صيدا وصور ، راجع : د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١١٧ - ١٢١ ، ١٣٢ .

(٤) د. أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ٥٧ - ٦١ .

وفى بلاد وجزر اليونان تدل أسماء المدن والقرى فيها على مدى اتساع التجارة الفينيقية فى تلك المناطق . فيقال إن اسم مدينة كورنثوس يقترن باسم المعبود الفينيقى ملقارت . ومن أثر الفينيقيين فى بلاد الإغريق أسطورة قدموس (أى الشرقى) القادم من صور والذى يعزى إليه فضل إدخال حروف الهجاء الفينيقية إلى بلاد الإغريق وبناء مدينة طيبة التى كانت قلعتها العالية المحصنة تعرف باسم " قدميا " .

وكذلك تذكر لنا الأسطورة أنه كان فى تراقية (الجزء الشمالى من الإغريق) مناجم للذهب . وقد جاهد عمال المناجم الفينيقيون فى هذه المنطقة بحثا عن الذهب فى القرن السابع ق. م . وتذكر الأسطورة أيضا أن مقاطعة البرية أى البلاد المعروفة الآن بألبانيا ، إنما سميت باسم ابن قدموس الصورى : البريوس . وتذكر الأسطورة كذلك أن قدموس قد جاء إلى بلاد الإغريق ليفتش عن أخت له خطفها معبود إغريقى وكانت تسمى " عربا " وهذا الاسم عربا يعنى " الغرب " ومن هذا الاسم جاء اسم القارة بأجمعها أوربا بمعنى الغرب أيضا . وهكذا نجد أن الإغريق يرجعون كثيرا من حوادث تاريخهم الأسطورى إلى الفينيقيين . وكذلك هناك جاليات فينيقية كثيرة استقرت فى بلاد اليونان لاسيما فى ميناء بيرية حيث كان لهم معابد ومقابر . فقد عثر فى أثينا على نقوش كتبت على مقابر فينيقية .[1] ومن جملة الجزر التى وقعت ضمن دائرة النفوذ الفينيقى جزيرتا ساموس وكريت فقد كان لهما مركز مرموق عند التجار الفينيقيين وكانت لهما مكانة بارزة فى مجال التبادل التجارى .

وفى إيطاليا كانت لهم مراكز فى صقلية وبالرمو وكورسيكا وسردينيا . وكانت صقلية تعد محطة هامة لهم خصوصا حينما كانوا يذهبون إلى مضيق جبل طارق (أعمدة هرقليس) فكانوا يحطون رحلهم فى مدينة بانورموس (بالرمو

---

(١) د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ١١١ - ١١٣ ؛ المؤلف نفسه : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١٤٤ ، ١٨٩ .

الحالية) ويقال أن مدينة بالرمو شيدت على موقع فينيقى قديم .(١)

أما فى شبه جزيرة ايبيرية (اسبانيا والبرتغال) فقد أسس الفينيقيون فيها مدينة قادس فى حوالى ١١١٠ ق. م . أو ١٠٠٠ ق. م . وتعتبر من أقدم المراكز التجارية فى هذه البلاد . وقد اشتق اسم قادس من كلمة فينيقية معناها " المدينة ذات الجدران أو المدينة المسورة " . وقد أدى تأسيس قادس وراء أعمدة هرقليس (وهما الرأسان الصخريان عند مضيق جبل طارق) إلى دخول الفينيقيين إلى المحيط الأطلنطى . ويرى البعض أنهم وصلوا إلى كورنوال فى إنجلترا فى بحثهم عن القصدير أو جزر القصدير . وكان التجار الفينيقيون يبادلون القصدير والرصاص بالخزف والملح والأوانى النحاسية . وكان الفينيقيون وحدهم يقومون بهذه التجارة من قادس و يخبأون معرفة الطريق عن الناس ويذكر سترابون بأن السفن الرومانية تعقبت مرة سفينة فينيقية لكى تكتشف هى أيضا طرق تلك الأسواق . ولكن قائد السفينة الفينيقى قذف بسفينته عمدا على اليابسة وقبض من دولته ثمن الشحنة التى فقدها . ومدينة قادس كانت أيضا معروفة بإنتاج الملح .

وأسس الفينيقيون مراكز ومدن أخرى فى أسبانيا فى منطقة ترشيش (الأندلس) وخاصة فى المنطقة بين قرطاجة (على اسم المدينة الأم فى شمال أفريقيا) وقادس . واسم ترشيش هو اسم فينيقى بمعنى " المنجم أو مكان الصهر " . وكان هناك أيضا مدينة ملقة أو ملغا ومعناها " معمل أو مكان للعمل " وقد يبدو أنها سميت بذلك لأنها كانت مكانا لتمليح الأسماك وحفظه لأن سترابون يذكر لنا أن مكان تمليح وتجفيف الأسماك كان يوجد فى هذه المدينة ، وربما استقر الفينيقيون فى قرطبة . وأقدم عملة فيها كانت تحمل حروفا فينيقية استبدلت فيما بعد بالبونيقية . وربما كان اسم برشلونة الواقعة إلى الشمال مشتق من برقلونا أى من الكلمة الفينيقية براق وتعنى برق .

---

(١) د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١٣٩ .

وفي جزر الباليار كان للفينيقيين نقاط ارتكاز تجارية ، ولكنهم لـــم يحتلـوا البلاد أو يستولوا عليها وقد يكون اسم عاصمة الجزيرة مينوركا وربما كان مشتقا من كلمة ماجو بمعنى " الترس " .[١]

كما كانت لهم مؤسسات تجارية أو دائرة نفوذ في جـزر صغـيرة بـالبحر المتوسط مثل مالطة وجولوس . وكان تقعان على الطريق المؤدى من شرقى البحـــر المتوسط إلى غربه . وقد ذكر ديودور الصقلى أن سكان جزيرة مالطة كـــانوا مـن الفينيقيين . واسم مالطة من ملط بمعنى هرب ، ولا عجب أن تسمى الجزيرة بالملجـأ أو بمكان للهرب لأن فى الجزيرة ميناء يعد من أفضل موانى البحر المتوسط . كمـــا احتفظت اللغة المالطية إلى يومنا هذا بكثير من المفردات الفينيقية التى طـــرأ عليـها شئ من التغيير .[٢] وأسس الصوريون مراكز أخـــرى فـــى جزيـرة رودس وفـــى ايداليون .

واتجه الفينيقيون بعد ذلك إلى شمال أفريقيا . فنجد أنهم نزلوا فـــى مصـــر وأقاموا عند مصبى فرع رشيد وفرع دمياط لقربهما من شاطئ البحـــر المتوسـط ، وأقاموا كذلك فى بعض نواحى منف حيث كان يوجد هناك ميناء تجارى هام وكـــان معسكرهم فى منف يحمل اسم " حى الصوريين " طبقا لما ذكره هيرودوت ، وحـول معبد الكرنك من عهد الملك تحوتمس الثالث ، كان يوجـد جاليـة سـورية وتجـار سوريون أو فينيقيون يعملون بالتجارة المحلية . وحول المعبد الجنائزى للملك أمنحتب الثالث فى البر الغربى فى طيبة كان يوجد حى سورى يشرف عليـه أحـد الأمـراء السوريين الذين أحضروا من سوريا .[٣] كما أنه كانت هناك جالية تجـارية مصرية

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

(٣) د. رمضان عبده : حضارة مصـــر القديمـة ، الجـزء الأول ، ١٩٧٧ ، ص ٤١٩ .